التقنيات الفنية والجمالية المتطورة في القصة القصيرة

حسن غريب أحمد
hassan_ghrib@yahoo.com

أما ما نطلق عليه "النسيج اللغوي" الذي يشمل الحوار والسرد فهو المتن النصي للقصة الذي يجسد الحدث ويشكل الشخصيات ويتنامى بهما في اتجاه تحقيق الأثر الكلي, من هنا يتحتم على الكاتب أن يولي أهمية كبرى للغة ومستوياتها وقدرتها على التصوير بحيث تكون بالغة التكييف والتركيز والاقتصاد بحيث توحي كل لفظة بالمعنى المطلوب, ولا تكون هناك أي مفردة لا ضرورة لها.

البنائية

وقد نهض الشكلانيون الروس بمهمة تحديد الخصائص البنائية للقصة القصيرة والتي أعمد إلى الاستفادة منها في استخلاص ثلاث خصائص أساسية هي "وحدة الأثر, لحظة الأزمة, اتساق التصميم"ـ وتتمثل وحدة الأثر في ما تتركه القصة القصيرة من انطباع نتيجة خلوها من التراخي والاستطراد وتعدد المسارات والزوائد والتكرار وهذه قد أكدها الرعيل الأول من كتاب القصة القصيرة , ولكن التركيز على تعاقب المفارقات وجدل النقائض وتراكم الإيحاءات وما إلى ذلك من التقنيات يبدو أثرا من آثار الشكلانيين .

لحظة الأزمة

أما لحظة الأزمة فهي اللحظة التي يتكاتف فيها التوتر وينطوي عليها الاكتشاف , وهي نابعة من اتساق التصميم وهو يقود بالضرورة إلى دراسة الملامح التي تمثل العناصر الأساسية للقصة , فترتيب هذه العناصر لابد من منطلق يربط الأحداث بعضها ببعض في سياق يستجيب لجملة الإشارات التي يطلقها الكاتب في القصة , و ينهض الزمن بدور رئيسي في اتساق التصميم وعملية التتابع الذي يتمثل في عدة أشكال تتفق جميعا في أنها تثير مجموعة من التوقعات والاحتمالات ومنها التتابع السببي أو المنطقي , والتتابع النوعي أو الكيفي والتتابع التكراري , والأول يتم في مسار أفقي تدريجي من المقدمات إلى النتائج .

أما الثاني فهو لا يعتمد على التوقعات المحكومة بالمنطق بل بالحدس والتخمين لأنه يتكئ على الإيماءات والإشارات , والثالث يستلزم إغناء النص من خلال إعادته بصورة جديدة بتوسيع أفقه والإضافة إليه .

الظواهر الفنية المتطورة

وقد برزت ظواهر فنية جديدة في القصة القصيرة الحديثة تتمثل في :

) أولا : ظاهرة التفتيت

وتسمى هذه الظاهرة "البعثرة المنهجية" وتعني تعمد تشتيت السياق السردي , وتشكيل الشخصية القصصية على نحو تبدو معه , كأنها مجتمعة من ملامح لا انسجام بينها , تتداخل العوالم وتتشابك الأحداث وتتسرب الشخصيات في مسالك شتى , وأصبح الترابط يعتمد البنية العتيقة التي تتجاوز الشكل الظاهري , وقد بدت هذه الظاهرة في البناء المقطعي للقصة القصيرة وتجزئتها إلى وحدات , تبدو كل وحدة وكأنها

صورة منفردة مصغرة للبناء الشامل, وتصبح "بنية فنية تنقل سلسلة محدودة من الأحداث أو الخبرات أو المواقف وفق نسق متوافق يخلق إدراكا كليا خاصا به", ولا يقتصر التفتيت على الحدث بل يشمل اللغة, حيث تتسع دائرة الدلالة إلى درجة تسمح بجمع أعناق المتناظرات وتعني المعنى ونقيضه , ويتمثل التفتيت فيما يسمى اللغة الصامتة أو اللغة اللامنطوقة التي تعتمد على الرموز والأحلام والرسم والموسيقى, وهناك التكثيف والتركيز وهو رديف للصمت الدال العميق , وقد نجم عن ذلك شيوع الشاعرية حيث أصبحت اللغة هي مادة القص وغايته بدلا من أن تكون وسيلته , وكان النقاد يعبرون عن اللغة المقصودة لذاتها في الشعر بالزجاج الملون , واللغة الوسيلة بالزجاج الشفاف في القصة , وفي السرد الحديث تداخلت اللغتان معا , فليس ثمة تقرير بل تشكيل .

والمفارقة في لغة القص جزء من ظاهرة التفتيت , وهي التي عنينا بها الدلالة على الشيء ونقيضه , وهذا يعكس لونا من ألوان العبث , وهذه الرؤية تبرز عدمية العالم عند الشخصية , عندها يتساوى لديها الشيء ونقيضه .

) ثانيا : تراسل المدركات

حين تتراكم الصور عبر المشاهد دون أن تخضع لمنطق السببية , حيث تضطرب حالات الزمن وتتداخل على نحو متشابك وحيوي يعتمد على التداعيات عبر تيار الوعي الذي ينتظم جملة من الترابطات النفسية التي تضمن معنى ما , فتأتي الوحدة هنا من خلال التعدد الذي يصب في مجرى الصورة الكلية التي تبدو أقرب إلى الصورة الشعرية بعناصرها المتكافئة الموحية , ولم تعد الصورة وصفية جامدة بل متزمنة بزمن ومتحركة وديناميةٍ, فهي سلسلة من المتناقضات المتداخلة والمتماثلة. وقد أصبحت الصورة تعتمد على التشخيص والتجسيد وتراسل مدركات الحواس.

) ثالثا : الزمان والمكان

لقد توسل كتاب القصة القصيرة بالزمان والمكان فجعلوا منه وسيلة للإفضاء بالرؤية من خلال نظام تتابعه غير المألوف إذ تشكل النقلات الزمانية والمكانية , وأسلوب الوصف منظورا فكريا يحدد موقف الكاتب , فتداخل الوحدات الثلاث للزمن وتشابكها على نحو خاص يفضي إلى رؤية معينة .

) رابعا : التقانات السينمائية

استثمار التقانات السينمائية كالتصوير السريع والبطيء والمونتاج الزماني والمكاني والقطع والاختفاء التدريجي وما إلى ذلك ودخول التراث كعنصر جمالي , وترميزه والمزج بينه وبين العناصر المعاصرة , ودخوله في التشكيل البنائي , ويتصل بذلك مسألة إعادة إنتاج الدلالة من خلال الرمز الذي يتولد من التشكيل الصوري.

) خامسا : أعماق اللا شعور

الإتكاء على الحلم والكابوس وما يتصل بهما من غوص إلى أعماق اللاشعور واستثمار معطيات علم النفس التحليلي خاصة الرؤية الفرويدية للحلم كما جاءت في كتابه "تفسير الأحلام" والرؤية التأويلية لدى السلف في هذا المجال .

ونتيجة للتجديد المستمر في "التكنيك" لم يعد من الممكن استخلاص قواعد محددة لفن القصة القصيرة , وأصبحت كل قصة قصيرة جديدة تشكل تجربة جمالية , وأفضى ذلك إلى شيء من الغوص , وبدا فن القصة القصيرة فنا مراوغا , ومغامرة غير مأمونة العواقب.

إنه لواقع جمالي أمثل هذا الذي تدرج فيه القصة القصيرة في مصر خاصة والوطن العربي عامة, واقع جمالي تتآلف فيه الأصوات القصصية المختلفة دلاليا , لتعبر عن فيوض اختلافاتها التقنية والرؤيوية والأسلوبية , التي تميز قاصا عن قاص , ومرحلة عن مرحلة وسردا عن سرد .

القصة القصيرة تشهد اليوم زخما كبيرا في ابداعيتها وفي تلقيها تجارب الذات , وتجارب العالم بشكل جديد , يستغني عن الثرثرة والاستطراد والتعبيرات الخيالية المحومة , ليقدم لغة قصصية تحتفي بالتكثيف , والمكاشفة , واستبطان تفاصيل الواقع , وقراءة الأشياء قراءة جمالية , لغة ترنو إلى قراءة الذات وانعكاساتها على الواقع , لا العكس انعكاس الواقع عليها , لغة فيها مزيج من الغناء والدراما والبكاء والوصف والرصد والتتبع , لغة تمزج فيها الوقائع سرديا , وتتجوهر فيها الشخوص وتتعدد الأمكنة .

إيقاعات ورؤى

جماليات القصة القصيرة

القصة عموما عمل إبداعي محض ينضده خيط السرد المحكم وبراعة القاص المنصهر في هموم مجتمعه , ولكل منا قصته التي يرويها في هذه الحياة بكل طعومها , وقد دخلت القصة القصيرة مجتمعنا على استحياء لتزاحم هذا العالم الزاخر بالشعر المتسيد , تبحث عن مكان لها فلا تجده إلا في عفوية الطرح والتكثيف المضغوط بحميمة حس القاص . والقصة القصيرة مخلوق زئبقي يروغ بين يدي المبدع في صراع مرير حتى يتمكن منه , فإذا تطابقت لغته مع فكرته أمكن القاص أن يجسده في عبارات مقتضبة هي الحد الأعلى في عملية الطرح , على أن تكون النصوص شهيدة عصرها تعالج قضايا لم تفقد الصلاحية لتدب فيها الحياة ولا يعلم إلا الله سبحانه وتعالى كيف سيكون طعم الحياة بلا قص , فهي تشعر متعاطيها بقمة السعادة دون أن تنساه من سويعات ألم لذيذ يسبق ولادتها , والقصة القصيرة وجبة غنية إذا توفر لها طاه ماهر وكانت لديه الرغبة للتقيؤ على الورق , وغالبا ما تأتي هذه اللحظة على مشارف الموت حين يلقي القاص بنفسه في بركة من القطن ويكف عن العوم , وكما أن أفضل الوجبات ما جاءت دون تكلف فكذلك الحال مع القصة القصيرة فهي وجبة غنية بتلقائيتها ما تلبث أن تحط على مدرج الواقع حتى تبحث عن قارئ تسكنه في محاولة جادة منها للتحرر من قصة المبدع , وكم يخذلها الحال عندما لا تجد في المتلقي ذلك الميدان الذي وجدت من أجله , فترتد كسيرة لتصيب القاص بالإحباط والمجتمع بالتأخر , ويظل الإنسان يتخبط في صحوه ومنامه باحثا عمن يقول قصته

والحوار في العمل القصصي من أبرز جمالياتها فهو يتعلق أثناء السرد الحكائي ولا يشبهه إطلاقا لأن السرد من خصوصيات القاص , والحوار من خصوصيات البطل بكل مكتسباته فلا ينبغي في نظري أن يتم الحوار بلغة القاص التي يفترض فيها إنها مثقفة جدا , وهنا تنشأ إشكالية الحوار

بالعامية أو الفصحى على أنني أرى أنه من خصوصيات الشخوص فحديث الإنسان الأمي غير حديث المثقف والدارس , والأبناء غير الآباء , وقد وصلت عندنا إلى مصاف التجارب العربية والعالمية بعد أن تجاوزت عائق تحديد الهوية .

وهذا عامل سببه القاص بالدرجة الأولى حين غرقت بداياته في المحاكاة والاندهاش بالآخر , ومن أبرز سمات القصة المكان والزمان والحدث فبغيابها في القصة القصيرة والقصيرة جدا على وجه الخصوص يعطي صورة غير مثالية للبطل , فتلاشي الزمان وغياب المكان وانحسار السرد وتقنياته تحت وطأة التقتير يفقد العمل أحلى ما فيه مخلفا قطيعة بين المتلقي والنص يذهب ضحيته الراوي "البطل" وتكف الساعة عن النبض ويتلاشى الزمان ويغيب الحدث ويتوارى السرد فتكون المحصلة حياة أشبه بالموت وبالتالي يأتي الجنين مشوها في أغلب الأحيان , وإن احتفظ بجينات القص .. ربما تكون التجارب الكتابية الأولى عشوائية كما القراءة , ولكن مع الخوض في الحياة الدراسية والندوات الأدبية والأمسيات الشعرية بدأ التوجه الفعلي لكتابة خاصة , وكانت علاقتي بالشعر منذ بداياتي الكتابية الأولى لذا فقد وجدت أنه من اللائق أن أقوي علاقتي بالسرد من خلال لغتي الشعرية الخاصة بي .

بدأت أقرأ فعليا أعمالا متميزة وأبحث عن السبب الذي جعلها متميزة , فكرت بالشكل والمضمون وبدأت أتوقف عند كل نص أكتبه وأضعه في ميزان المقارنة مع ما هو منشور للكثير من كتاب القصة في العالم وكنت أتساءل هل هذه حقا قصة قصيرة ؟ وهذا ليس بالسؤال السهل لأنه في حالة اقتناعك بأن ما كتبته يعد عملا قصصيا جيدا تصاب بداء التكلس فتفقد القدرة على التجاوز ولكن عند اقتناعك بأن العمل الجيد هو ما ستكتبه سيكون ذلك دافعا للتجاوز ولقد حملت شعارا "لن تكتب إذا لم تقرأ". ومع مرور الزمن أضفت بعض الكلمات على ذلك الشعار ليكون "لن تكتب عملا جيدا إذا لم تقرأ كتابا جيدا ومفيدا".